الله في الفن

بقلم أحمد كمال زكي

كلمة اولى :

كان محض اتفاق أن أشرع في كتابة هذا البحث ويصدر قرار بحظر على طلبة الجامعة الأزهرية ممارسة الرسم كهواية يملأون بها شيئاً من فراغهم . ويبدو أن صاحب القرار قد آثر أن يهمل نداء الطبيعة في الانسان ، ويضع جانباً مسألة ترقية حس الكائن الإنساني ، ويقضي على الدافع الجمالي عنده ، ويباعد بين الدين والفن في أصرار وعناد وتصميم . والصور العارية التي رسمها طلاب الأزهر ، والتي أثارت شيخهم ، ليست إلا استجابة لنوع من التأمل الفطري يجب أن يتاح لكل واع يتطلع إلى أن يعيش حياته كاملة . فالمسألة ليست — في الواقع — مما يدخل في باب التحريم والتحليل ، ولا يمكن أن يكون لها هذا التهويل العاتي . والدين مهما يكن تزمت رجاله ينبغي أن يستند إلى ما يقدمه له الواقع من تجارب ، ولابد من الاعتماد على حرية أبنائه إذا طلب له البقاء . والخبرة الجمالية من حيث هي إحساس وتأثر وتعبير تفتح النفس إلى آفاق يحاول الدين نفسه أن يوجه النظر نحوها .

وإذا تناولنا الموضوع تناولا آخر رأينا أن الخبرة الجمالية ليست دون الدين قدرة على الكشف عن ذواتنا وعن جوهر الوجود ، بل إن في الدين قيوداً غيبية يجب احترامها ، في حين تتاح حرية مطلقة للفنان ، والكشف اللانهائي الذي يقوم به لا تُخشى مغبته لأنه في سبيل المجموعة المحبة للخير ، المتكافلة قواها على تحقيق السلام . ومن هنا يجب ألا ننكر آثار الفن في عملية التكامل الاجتماعي لأنه تحرير وبناء !

على أنه من الضروري الاعتراف بأن الفن في أكثر من حالة وقف مناهضاً للدين ، محارباً إياه ، منكراً لكثير مما عرض له . أجل من الضروري الاعتراف بذلك ، ولكن بعد أن نقول إن اختلال عملية التكامل في المجتمع كانت العلة الحقيقية . كان هناك ضغط ، وكان هناك اضطهاد ، وكان هناك سوء توزيع في الاقتصاد ، ثم كان هناك نقص في البناء الفكري العام .. وكل ذلك لاشك يؤثر على الأفراد — والفنانين منهم بخاصة — ويعبث بقيمهم ، ويقطع بهم السبل عن المضي في المجال المرسوم ، فيكون الواحد منهم مثل إنسان «باسكال» ابناً للقضاء والقدر ، حائراً ، قلقاً ، ضالا .. جاء من غيب مظلم إلى غيب أكثر ظلاماً !

هي محنة ولا ريب .. محنة ابتليت بها الإنسانية مرات و مرات ، وتبتلى بها اليوم في أزمات اجتماعية وثورات قومية ، و في حركات سياسية واستعداد لحروب طاحنة . غير أن هذا كله إرهاص للتكيف الجديد ، وستواجه الإنسانية مواقف قد لا تسعفها تقاليدها على الاعتراف بها واحترامها ، وسيكون هناك من يحمل الشعلة ويمضي إلى الأمام ، ومن يصر على أن يطفئ نور الأمل ليقبع في السواد ...

وأنا أخشى أن يكون قرار الأزهر حركة تشبه هذه الحركات التي قام بها من قبل ، والتي تقف حائلا دون التقدم المنشود ، وأخشى أن تكون هناك حركات أخرى مماثلة يقوم بها القسس ، فما نرضى أن تتكرر المأساة فتقع اليوم كما وقعت من قبل ، فليس أشق على النفس من أن يسقط رجل الدين من حسابه ما في الأرض من جمال وانطلاق ...

أنا لا أحب أن نتهم — نحن العرب — بالجمود ، ولا نحب أن نظهر أمام الرأسمالية الأجنبية أننا نعبد إلهاً جامداً لا نستطيع حمايته ولا يقدر هو على حماية نفسه فيأتي العون منها في صورة غزو سياسي أو قهر اقتصادي . إن الله عندنا متسامح كريم قادر ، وليس في كتابه لنا — نحن المسلمين — نص واحد يعوق التطوير ويمسك بعجلة التقدم . إن ديننا يبني الحياة ...

المجال السلوكي والفن :

قبل أن يموت « إميل برييه » عام ١٩٥٢ نادى بوجوب تحقيق توازن في الفعل بين العلم والحياة الروحية ، وبندائه هذا فتح السبيل إلى القضاء على النزعة المادية ، حصيلة القرن التاسع عشر كله ، بل بيّن لنا كيف أنه يمكن الانتفاع بآثار الدين انتفاعنا بتجارب العلم . لقد جاء هذا النداء من رجل مفكر

عالم بعد أن قام العقل البرجوازي بالغاء الله وإنكار العالم الآخر . ليس من شك في أنه رُوّع حين اطلع على آثار فلسفة البرجوازية بصفة عامة ، ووقف طويلا عند كاتب مثل « ماكولي » أو شاعر مثل « براوننج » هاله حالة الشك التي نجمت عن حركة التصنيع الهائلة ، ورأى أن المجال السلوكي في حاجة إلى تحديد جديد وأن الأهداف والقيود يجب أن تخضع لتعديل مناسب لأن صدع (النحن) يستلزم حتماً تغيير الطرق .

الدين إذن مقوّم من مقومات المجال ، واستغناؤنا عنه استغناء عن جزء من بنائنا الحيوي . والفن في هذا البناء يعمل عمله ، ويبذل نشاطه ، ويدفع لنا عبقريات تعمل من أجل المجتمع في صورة شاعر أو موسيقي أو مثال . والكامل من هؤلاء من يوازن بين القيم ويستجيب لكل ما في المجتمع ، فيؤمن بالعلم ويؤمن بالدين أو على الأقل تكون له حياة سوية.

نحن لانريد أن نتخبط تخبط « أوجست كونت » فنضع للمجال السلوكي فلسفة كفلسفته تقيم صرحها على عناصر كاثوليكية شوهاء لأننا لا نعيش في القرن التاسع عشر ، ثم لا نريد أن ننتهي نهاية « ليون برونشفيك » في اوائل هذا القرن فنبشر بديانة جديدة هي ديانة الإنسانية يدعمها العلم ، وإنما نقرر أن كل نشاط اجتماعي صدى لحاجة اجتماعية ، وينبغي آن نعنى بالدين طالما كانت حياتنا في حاجة إليه .

إن أوضح ما يتميز به عصرنا هو الحرص على تمجيد الإنسان ، وعلى استكناه حقيقته ، وعلى تبين كل المعالم لمجال سلوكه ، وعلى تعرّف علاقاته بالآخرين ، وعلى تقدير الضمير الجماعي الذي يحس بوطأته . فاذا فهمنا الأمر على هذا النحو وجدنا أنا ننتقص حقه بانتقاصنا أي شبر من مجاله . وإذا تركنا جانباً الدين ثم أهملنا الميتافيزيقا على اعتبار أنهما صدى للبحوث الدينية ، بقي الجانب المادي من مجاله محتاجاً إلى ما يدعمه من صفاء الشعور ودقة التفكير .

وقد يقال إن كثيراً من الفنانين باستشعارهم صدع (النحن) أهملوا الدين فاستكملت لهم أسباب العبقرية ، ومن هؤلاء بايرون وبشار وجيته وأبو العلاء . وربما يبدو هذا حقاً إذا لم نتعمقه ولكن الحق كل الحق أن سواهم كان على نقيضهم ، يحيا حياته المادية والروحية في اتزان كامل . والأمر مهما يكن يغرينا بالإشارة إلى عاهات هؤلاء ، فبايرون كان أعرج ، وبشار كان أعمى ومثله أبو العلاء ، وجيته كان ينشط فجأة لتعتريه حالة هبوط سوداوي ، فضلا عما صرح به هو نفسه من أنه عاش في مراهقة دائمة ، لقد قيل إن كل ذي عاهة جبار ! ومع ذلك فالمسألة لا تحتاج إلى كل هذا العناء لأن الدين كما أنزله الله من طبيعة دوره الاجتماعي أن يحدد اتجاه سير الغريزة ويحميها من الانحراف ، ولا يجوز في هذه الحال أن يقال عن الله إذا حدد في الدين مسلكاً غرزياً أنه قاومه بل يقال إنه قومه .

الفن إذن لا يهمل الدين أو ينكره بل هو معنى بكل ما في مجال السلوك الإنساني . وفرويد إذ يقول إن الفنان شخص ينصرف عن الواقع غالباً يبعد هو عن الواقع ، ولا يكفي مطلقاً أن يبدع لمجرد اطلاقه العنان لغرائزه الجنسية ! ولو قد وقف الدين هنا معوقاً عملية الإطلاق فليس معنى هذا أنه يمسخ الفطرة أو ينسخها .

فاذا كان ذلك فانه من الضروري أن نسلم بالدور الكبير الذي يلعبه الدين في الفن طالما كان عالم الغرائز دائرة يتحرك فيها . وسواء تهيأنا لرؤية الدين متعارضاً مع الفن أو متمشياً معه ، فاننا في حاجة إلى وقائع التاريخ قبل أن نفهم موقفنا اليوم .

الله في الفن القديم :

ولسنا نستطيع أن نتكلم هنا عن الفن البدائي فالأمر حوله يطول ، ويتعين علينا أن نمر بشتى مجتمعات عرفت أنماطاً مختلفة من الفن . وأقول الفن مابرغم قديمهض ازاء هذا القول من اعتراضات . والمشكلة تزداد تعقداً بانتقالنا إلى مجتمعات دخلت التاريخ في مرحلة متأخرة نسبياً ، لأن الحياة الروحية والتأثرية لهذه المجتمعات كانت تحددها قوى غيبية مختلفة وتهيمن عليها فكرة تعدد الآلهة ، فضلاعن أنا نشك في قيمة كثير منها من حيث هي تعبير جمالي خالص . والمسألة على أي حال أن مظاهر الدين الاجتماعية كانت تجد في الفن القديم وسيلة لظهورها ...

وعلى هذا الأساس ننظر إلى فترة ما قبل حمورابي — المؤسس الحقيقي للدولة البابلية — فنجد أن الفن السومر أكاري يهدف إلى تمثيل الطبيعة في ظل آلهة يقدم لها الولاء . وكان الحفر والنحت يحاطان بهالة من الشذوذ .. استجابة للحالة القلقة التي يضطرب بها الدين ، فالنسر له رأس أسد ، والثور يحمل هامة إنسان وهكذا . على أن عصر جوديا وملوك

أور كان يميل بصفة خاصة إلى إثبات المناظر - الدينية التي تمثل العبد متصلا بمعبوده عن طريق الوسيط .

ونرى في التراث البابلي قصيدة قيلت في تمجيد «مردوك» إله بابل ، وهي دليل واضح على اتصال الفن بالدين وعلى عناية الناس بفكرة الله وعالمه . ولكن مشكلة الخير والشر لم تمر في هذه الفترة من التاريخ دون أن يهتم بها أحد ، ومن ثم تساءل أكثر من شاعر كيف يحيق الشر بالفاضل ولا يمس السوء أهل السوء .. شك عميق عاشته الإنسانية وتعيشه اليوم!

أما الفن الأشوري فقد ابتعد عن الدين واهتم بتمثيل حيوانات الصيد ومناظر الحروب .. فهو أكثر واقعية من فن بابل ، غير أنه في بعده عن الإله والكاهن لم يعن قط أن أصحابه أهملوا حياتهم الروحية ، فلقد صوروا الخير والشر وزادوا فرسموا الجن كما رسموا الإله والإنسان . وكان يميز الجني جناحان وراء ظهره . ولكننا اذا اردنا أن نعرف مدى ما تتمتع به الآلهة من مكانة عندهم قرأنا ما كتب عن «بلاسر الأول» ملك العالم وسيد السادة الذي كان يحكم الآلهة .. الملك إذن أقوى من الإله ! ومع ذلك فان « بلاسر » يقول إن الآلهة منحته القوة وطلبت اليه أن يغزو ويقهر ! !

وإذا اتجهنا غرباً نلتقي بالفن المصري ، أكبر ما يدل على امتزاج الفنان بالكاهن في مجتمع من المجتمعات .. فالدين هنا يؤثر تأثيراً بعيد المدى في الإنتاج الفني ويكيفه ويفلسفه ويحيطه بسياج قوي ليمثل فكرة البقاء .. الخلود .. خلاصة تفكير المصري القديم ، حتى ضخامة التمثال المنحوت وخامته كانتا من أجل تحقيق هذه الفكرة . بل إن التمثال نفسه يقوم مقام الجثة المحنطة لاسيما إذا تحللت أو سرقت أو أصابها الدمار . ومن الواضح أن تمثال الشخص يكبر بقدر ما تكون درجته في المجتمع وكان للملك دائماً أكبر التماثيل .. فيه رزانة وثقل وضخامة ووقار وهدوء ، فهو إله ، ولكن الجالس أمامه لم يكن في ذلة بادية .. ربما آثر الفنان أن يحفظ للمصري كبرياءه!

ويلاحظ أن النحت في الدولة المصرية القديمة قد وصل إلى مستوى رفيع من الكمال وامتاز بواقعية قوية وابتعد عما قد يشعر بأنه وسيلة لإثارة البهجة ، فهو لا يعنى بما تعنى به تماثيل الإغريق والرومان . وظل الأمر كذلك طول حكم ملوك الدولة الوسطى وإن لاحت بوادر الخروج على التقاليد القديمة. وأما الدولة الحديثة فقد كان لها فلسفة مغايرة ، وافتقدت التماثيل قوتها واعترتها رشاقة وفتنة . ولكن الفنان ظل تابعاً للملك خاضعاً لأوامره الدينية والدنيوية ، وظل يحرص على تمثيل الوجدانيات فيما يتصل بالرهبة والخوف...

وليس من داع إلى أن نشير إلى فن العمارة ، فالمعابد والمقابر والأهرام والقصور — وقد كان الفن أرستقراطياً — هذه كلها تمتاز بالضخامة والقوة والاتساع .. فليس ثمة ما هو أكبر من فكرة الخلود ، وهذه جميعاً تصاغ من أجلها !

وأما الفن عند الإغريق فصلته بالدين واضحة .. سواء أكان ذلك في الرقص أم في الشعر أم في النحت ، ولكن فيه غموض ما رأينا من الفنون ، ولم يكن فيه خوف مطلق من آلهة ، ولم تكن هناك رغبة عن الدنيا .. حتى الطقوس الدينية فإنها لم تكن لإثارة التحذير وانما كانت لتهدئة الضمير ! !

لم تكن الفلسفة الفنية عند الإغريق خاضعة للملك ، ولم تكن آلهتهم مخلوقات بعيدة عنهم ، بل هي بشر مثلهم تعيش في الطبيعة ، فسعى الفنان وراءها بحرية مطلقة . لقد صور الفنان الإغريقي الحياة الإنسانية وقاسها بمقاييس جمالية دقيقة .

لقد فكر الإغريقي في كل شيء ، وتصور كل شيء ، فلم يحس وحده ، ولم يحس انفصالا بين عالم المادة وعالم الروح ، وارتبط الدين عنده بالأرض وعاش الفن معه ، حتى إن الإله نفسه لم يكن بأكثر من إنسان يأكل ويحب ويبغض ويطمع ويسرق و .. ويموت !

ونتقدم بعد هذا العرض فنقول إن الفن حتى تلك الفترة من تاريخ البشرية كان مصوراً للاعتقادات ، وكان عاملا على إثارة الانفعال ومعيناً في أداء الطقوس . بل نقول إن الانفعال الديني كله كان محتاجاً للفن حتى يشكله التشكيل المادي المنشود. فالفن والدين إذن متعاونان .

الله في الفن الحديث :

ولكن الأمر يتغير إذا عرضنا لنوعين آخرين من العقيدة ، فان ثمة تغيراً حدث نتيجة الاتجاهات الفكرية التي صاحبت انتشار المسيحية ثم تصد بها للدعوة الإسلامية منذ القرن السادس؛ وأصبحت الإنسانية إزاء وجهات نظر جديدة ، لا تستطيع أن تشبعها طريقة التفكير السامي وتمتاز بالإقبال الجدي على دراسة المشكلات الخاصة بالمجتمع إقبالا بعيداً عن نزعة الشك التي يمتاز بها العقل اليوناني .

— التتمة على الصفحة ٩١ —

الله في الفن

- تتمة المنشور على الصفحة ٨ -

لقد ظهرت المسيحية والله فيها فكرة سامية لا تحتمل شكاً، ولها في أكثر من جانب اتجاه نحو التوحيد . ولكن اتصالها باليونان من ناحية واحتكاكها بالتراث البابلي والأشوري من ناحية أخرى قد فتح الباب أمامها لتنقل إلى طقوسها صوراً ونقوشاً ربما كان فيها كثير من الوثنيات ، حتى إذا مضت القرون الخمسة الأولى كان المسيح « الإله » هدفاً لكل رسام ، ولم يفد التقليد السامي في وقف هذه الحركة ...

ويظهر الإسلام بنفس الفكرة السامية ، ولم يجد ما روي عن الرسول من أنه قال إن الله جميل يحب الجمال ، ولم يلن فقهاء الدين أمام صراحة القرآن حين دعا إلى هذا اللون من التأمل الفني السليم « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » بل غفل الجميع عما يأخذ به الخلفاء أنفسهم من إشباع نهمهم إلى الفن في الرداء الموشى والقصر المزخرف والصوت الحسن والشعر الدقيق والغناء المؤثر ، واتحدت الجهود على إبراز الدين في صورة بشعة تسفه الدافع الجمالي ، وتقضي على أسبابه ، وتهدم أشكاله . وكانت مسألة تحريم التصوير هي القوة الدافعة إلى اتحاد الجهود .

لقد كان كل من الدين والفن في حالة توازن كامل في العصر الهليني كله ، ولكن العناصر السامية استطاعت أخيراً أن تعمل عملها في الدينين الجديدين . فأما المسيحية فقد تخطت الحدود ، وأما الاسلام فقد رضي بالقيود!

كان سواع ويغوث ويعوق ونسر — الآلهة المصورة الممثلة — مأساة كره المسلمون أن تتكرر . لقد روت لهم الأثبات أنهم كانوا قوماً طيبين في ذات فترة متقدمة من الحياة حتى إذا ماتوا خلدهم قومهم في تماثيل ، ثم غبرت الأجيال .. جيلا بعد جيل ، ويستحيل التقدير تألهاً ، فالتماثيل في أول الأمر رموز مقدسة ثم هي في آخره آلهة معبودة ! !

وعلى أكبر الظن شغلت هذه الفكرة وأمثالها عقل المسيحية بعد أن تمت عملية الارتباط بين التصوير والعقيدة فوقع ما كان لابد أن يقع . على أننا لا نتناسى مطلقاً أن رجال الدين كانوا — على ما يبدو — يتأثرون بأهواء وسياسات مختلفة ، وانتهى الأمر بثورة على الفن .. بالقضاء على كل الصور المقدسة ، والعجيب أن هذه الواقعة لم تكن إلا حركة سامية .

وليس من داع إلى أن نتتبع بالتفصيل وقائع تلك المشكلة ، فقد انتهى أمرها وعدنا الآن نرى كيف أن المسيحية تؤدى في صورة فنية رائعة ... في جو شاعري أخاذ قوامه التصوير والتمثيل والشعر والموسقة الحزينة حزن المسيح ! فنحس من قريب أن التعارض بين الفن والمسيحية لم يكن كبيراً ، ولم يستمر طويلا ، ولم يكتب له الاتساع . ومن المؤكد أن ذلك الأمر بتلك الكيفية لا يعنى مطلقاً أن عصر النهضة الذي يؤرخ به تاريخ أوروبا الحديثة لم يشهد حركات قوية لفصل الفن عن الدين ، بل أخذ الناس يشغلون أنفسهم بالطبيعة وما فيها عن يسوع وقديسيه ورهبانه !

ونمسك الخيط من هنا ، فان الفن سيكون عرضة للمد الفكري والجزر . وأصبح هذا الفكر في القرن الثامن عشر على درجة من النمو بحيث يقدر في أي وقت أن ينتفع — أو لا ينتفع — بالفن انتفاعاً دينياً . وفي ظل الارستقراطية الإقطاعية كانت ثمة حضارة ريفية قوامها الدين فيدعمها شيء كالتفويض الإلهي المنوح للملك . فامتازت العمائر بالأسلوب القوطي لتكتمل أسباب الرهبة للاقطاعيين . والمعروف أن الفن القوطي مسيحي النشأة عرفته العصور الوسطى بعد أن قامت الكنيسة الرومانية بتعليم القوط — برابرة الشمال — مبادئ المسيحية. وكانت الرجعة إليه في هذا القرن رجعة إلى العصور المظلمة ، والله في أي الحالات هو يسوع الحزين ...

ولكن القرن التاسع عشر يشهد نشوب الثورة الآلية ويضطرب بالتقدم العلمي والصناعي ، وفي الوقت نفسه كانت البرجوازية تنشط للحياة بعيداً

أخيراً في جميع المكتبات
القصة التي أثارت المجتمع البريطاني بصراحتها في معالجة السعادة الزوجية والحياة العائلية
الغرفة الصينية

عن الريف بعيداً عن الكنيسة، بعيداً عن الإله الحزين، وسخر كل شيء في سبيل خدمة تلك الطبقة الناشئة.. كل قرد فيها عالم مستقل لأنه هو نفسه صانعه! كانت (الأنا) كل شيء، والمنفعة مصدر السلوك. وليس من ضير أن ينقد الكتاب المقدس ويخالف، وما على « روبرت تشيمبرز » من بأس إذا خالف التوراة وربط بين القرد والانسان، فالله الحديد ليس المسيح، الله الجديد هو (الأنا) أو الآلة أو المال أو المادة كلها !!

والأدب يسجل ذلك كله .. يسجله إلى جانب ما سجلته كتب الاقتصاد والفلسفة والاجتماع. الأدب يصور الميلاد الجديد، ويحتفل بالعلم، وينكر الدين. ويكفي الفرد لكي ينكر أن يرى كيف أن ما جاء في الكتاب المقدس لا يطابق ما استحدث من نظريات. ولنقرأ « تنيسون » فهو في شعره مثل واضح للإلحاد والحيرة والاضطراب بين الغيبية والتجريبية.

وفي هذه الفترة بالذات كان الشرق العربي مغرقاً في الجهل متخلفاً عن الركب، وانتهى إلى حالة يائسة وجد فيها الخلاص في لون من التصوف القاتل. وكأنما الشعر — وهو أبرز فنون العرب — قد أتى على كل نواحي الحياة فلم يعد أمامه إلا شخصية الرسول. وكان أن استعرت معركة المدائح النبوية في غير ميدان !

كان القرن كله إذن حافلا بالمتناقضات. كان صورة للبلبلة الحضارية إن صح هذا التعبير، وكان الرخاء المادي الذي عرفته أوروبا بالذات يضاعف الشقة بين حياة المجتمع وأمل في إيطوبيا سمحاء. كانت البرجوازية لا تسمح للبروليتاريا أن تعيش. كانت تنادي بتخليص الرجل الأسود من الجهل وتحيط رجلها العامل بقيود أخف ما فيها الجهل، وبات من المحقق أن الأمر يحتاج إلى تغيير القيم .. فهو ينقصه حياة روحية منظمة، دافع ديني كريم ...

ظهر « أوسكار وايلد » يسخر من البرجوازية ويعبث بتقاليدها، وراح يهاجم إيمانها بالمادة، ونادى بدين جديد .. ربما لا يمت للمسيحية بصلة، ولكنه دين على أي حال، أهم مافيه أنه يقدس الجمال، وأما العقل فلا غناء فيه. لنقرأ صورة « دوريان جراي » ففي هذه الرواية فلسفة الكاتب كاملة، وفيها ما يدل على حاجة إنسان ذلك القرن إلى إله جديد غير ما صنع من آلهة !

ويبدو أن المسيحية لم تعد بالكيفية التي تقنع كل آخذ بها، فهذا « ماثيو آرنولد » يعلن إفلاسها وقيام آله الثقافة. وأما الآلة فهباء، وأما الصناعة فلا تبشر بكل ما تعرب عنه البرجوازية من تفاؤل.

وفي ذلك الوقت كان شلي — وهو الداعية إلى فلسفة البرجوازية — يعمل على أن تظل العقيدة بعيداً عما يقف ضد رغباته. كان الدين عنده هو مجموعة الأخلاق التي يرى المجتمع أنه يريدها وأنه يصل إليها بنفسه .. بتفكيره .. بل بخياله، لأن الخيال وحده هو الذي يستطيع بادخال المجال السلوكي أن يقتحم حدود « الأنا » إلى الجماعة.

إن الدين هو الحب، وهدف الإنسان هو الحب، ورسالة شلي — إن كانت له رسالة — أن يعلم الناس كيف يحبون، وجوهر الأخلاق التي امتازت بها أكبر أعماله الشعرية (برمثيوس طليقاً) هو الحب. والشاعر نبي يتلقى الوحي كما يتلقى الأنبياء رسالات السماء، وأما المسيحية فهي تموت كما ماتت عند ماثيو آرنولد .. رجال الدين أنفسهم هم الذين يقتلونها بتعنتهم ! وهو لذلك يكرههم ويناصبهم العداء وينكر تعاليمهم ويحارب نظمهم.

تلك هي فلسفة شلي كما يراها دكتور لويس عوض. إن دينه هو الذي ينادي به برمثيوس لأنه كائن فريد .. فيه قوة الإله وسماحته، وفيه صبر أيوب وبلاؤه، وفيه بطش جوبتر وظلمه، ثم فيه انانية الإنسان !

في المكتبات

عرق

مجموعة قصص

مع دراسة بقلم توفيق صايغ

تأليف

لجبرا ابراهيم جبرا

من كتب

المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر

لنقل في صراحة إن الله لم يعان قط ما عاناه في هذا القرن – التاسع عشر – ولكنه لم يكن متوارياً دائماً ، واتخذ في الفن صوراً شتى ...

وماذا الآن:

أما اليوم ففكرة الله تتجلى فيما يثار حول الإنسان ، فقد سبق القول إن فلسفة هذا القرن تهدف إلى تمجيده وترمي إلى تحديد علاقاته – في مجاله السلوكي – مع الغير .. وعلى هذا الأساس نلحظ أن الله – في اطاره الديني – لابد ان يكون حقيقة من الحقائق الواقعية .. حقيقة لا يمكن تفتيت مظاهرها إلا بالقضاء عليها ، وفي هذه الحال نسلب الانسان حقه في حياة إنسانية كاملة .

لقد تعرض القرن العشرون لهزة حربين كبيرتين ، ولحركات استقلالية تقدمية مختلفة ، وشهد بزوغ مجتمعات على أنقاض الرأسمالية العجوز فكان عليه أن يعيد الفكر من جديد في حياته الروحية كلها . وكان عليه أن يدرك أن ثمة شيئاً واحداً لابد يثبت مهما كانت الانقلابات عاصفة عاتية ، أما هذا الواحد الثابت فهو فكرة الله .

وربما ينهض من يشير من بعيد أو قريب إلى المادية الجدلية مرة وإلى الوجودية مرة أخرى .. يشير إلى هذين المذهبين ثم يروح يسأل : وأين الله ؟ «كارل ماركس» وهو المؤمن بالمادة لا يستجيب لنداء روحي ، وإلهه لا يسكن السماء وإنما يغرس على الأرض ، لأنه هو القاعدة .. الهيكل الاقتصادي للأمة ! و «مارتن هيدجر» و «سارتر» يضعان ديناً جديداً للانسان .. ديناً يعني بالحياة من حيث هي مسلك واتجاه في وجود حر وبلا مصير مقيد !

أثمة تعارض بين هذا وبين ما قلناه ؟ إني أشير إلى ما ذكرت عن الحربين ، والأمر بعد لم يستتب ، ولم يستقر العالم على شيء ، والقاعدة عند «ماركس» ومسألتا الماهية والوجود عند «سارتر» تلقى اليوم من الجدل مالا سبيل إلى حصره هنا ، ولكني أنكر أن تكون الشيوعية بهذا البعد الهائل عن الله ، وأنكر أن تتنصل الوجودية من القوة التي تحاول هي أن تتخلص منها .. فسواء أكان الله سلبياً أم يقوم بدور ايجابي فنحن يجب أن ننتظر ...

واليوم نرى الدين في المعسكر الغربي وسيلة فعالة لبسط نفوذه ، فهناك حشد هائل من الأفلام الدينية ، وهناك حركة نشر للكتاب المقدس في صور فنية مغرية ، وهناك أقوال يلقي بها الساسة والقادة لتخدير الشعوب العاجزة .. نداءات تشبه نداءات محمد والمسيح ، فالله موجود وسوف يظل في الوجود ، وأما بعد هذه النداءات ، وأما بعد هذه الحركة الفنية الدينية ، فأمر تعرفه دولة كالسودان أو دولة كباكستان !

إن الأمة العربية الصاعدة .. في حياتها الجديدة النامية ، تستطيع أن تحمي نفسها ، وتستطيع أن تحرص على دينها ، وتستطيع أن يكون لها فنها في ظل فلسفتها العربية .. في ظل قوميتها ذات التاريخ العريض ، فهي ليست في حاجة إلى من يوجه لها النداء ، وهي لا تخاف إذا تحركت داخل مجالها لأنها تؤمن بأنها تريد أن تعيش حياتها كاملة .

أجل ، فنحن في شرقنا العربي نكافح من أجل حياة كاملة .. من أجل اشتراكية متمشية مع تحررنا القومي ، وعلينا في هذه الحال أن نرفض التفسير المادي الذي تقوم عليه الشيوعية ، ونرفض في الوقت نفسه الحل الوقتي الذي تقدمه الرأسمالية مشوباً بالغيبيات !

أما تلك الأصوات التي ترتفع من هنا وهناك بيننا والتي تريد أن تجعل لنا إلهاً لا ترضى عنه كتبنا المقدسة ، فلن تجد لها آذاناً مصغية ، لأن الحياة تسير ، ومجالنا السلوكي يتسع ، وحبنا للفن يتضاعف ، وإحساسنا بالجمال يرهف ، ولن يستطيع أحد بعد أن يقول : هكذا أمر الدين ، وعن ذلك يرضى الله أو يثور .

الخرطوم

احمد كمال زكي

من الجمعية الأدبية المصرية

في المكتبات

صوت من الماضي

تأليف

جون ماركوان

ترجمة ، اميل خليل بيدس

قصة انسانية رائعة لاغنى للمثقف عنها

من كتب المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر